

الأساليب والقيم الإسلامية في دفع عجلة التربية والتعليم

تخيّل معي أنك كنت في مكة وقت تنزّل القرآن، تمارس مع أهلها عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية والثقافية، وتشاطرهم قيمهم وأمور حياتهم، وتخيّل أنك سمعت واحداً من أهلها يناديك، ثم يفاجئك بالحديث في أمر لا تعرف عنه شيئاً، دون أن يهتم بشيء من أمورك الخاصة أو من أمور مجتمعك، أو تقاليده، أو طقوس العبادة التي يمارسها، ولكنه يقول لك كلمة واضحة محددة الدلالة: «(اقرأ) ! آية مفاجئة تجد في ذلك لاسيما وأنك تنتمي إلى أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب ولا تحسب؟ ومع هذا ففي اللحظة التي يأمرك فيها بالقراءة يرتقي بك من عالمك الأرضي إلى أرفع مستوى فيقول: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق...﴾ (العلق 1)

ولعلك تتخيّل بعد هذه المفاجئة الفريدة والمثيرة في وقت معاً أنه سيحدثك عن صلتك بهذا الرب وكيف تعبدته وتمارس شعائر العبادة. لكن هذا القرآن ما يلبث أن يفاجئك مرة أخرى إذ ينبهك إلى حقائق أساسية في علم الأجنة: ﴿خلق الإنسان من علق.﴾ (العلق 2).

إن هذا يهيبك ذهنياً ونفسياً لتفهم طبيعة المعرفة التي لن تلبث أن تأتيك في هذا القرآن تؤكد لك أن ما تتعلمه منه إنما يأتيك من ﴿ربك الأكرم، الذي علّم بالقلم.﴾ (العلق 3-4).

إن هذه الآيات القصيرة تنقلك من لحظة الخلق الأولى لتذكرك بأن الله سبحانه هو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم.﴾ (العلق 5). أما الآيات التي تتضمنها هذه السورة بعد ذلك فتنتقلك إلى مجالات شتى وأمور متنوعة. فهي تتحدث عن حقيقة واضحة في علم النفس: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.﴾ (العلق 6-7). ثم تسترعي انتباهك إلى حقيقة أخرى وهي أنك سترجع في النهاية لتلقى ربك. وإنك وابد أن النمط كله نمط بديع، يرسى أسس صلة واضحة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. فهو يحدثك عن مزيج متناسق متكامل من آيات الله في النفس الإنسانية وفي آفاق الكون، كما يحدثك عن العبادة والتقوى حتى تفضي الصورة إلى نهايتها.

* * *

أما أن هذا القرآن يتصل اتصالاً وثيقاً بكل العلوم فأمر لا يدعو إلى العجب، فالعلوم كلها والمعرفة الإنسانية في مختلف فروعها ومجالاتها إنما هي نتاج سعي الإنسان لمعرفة أسرار الفطرة، بل إن الدين نفسه هو الفطرة كما يصفه ربنا عز وجل في هذه الآية الكريمة: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.﴾ (الروم 30).

وإذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجد أنها لا تقول إن الإسلام دين الفطرة، بل هو الفطرة نفسها التي فطر الله الإنسان عليها. وهذا نصٌّ موجزٌ محكم شامل في دلالته، يؤكّد التطابق الكامل بين الإسلام والفطرة بمختلف جوانبها الحسيّة والعقليّة والروحيّة التي تهم الفرد والأسرة والعشيرة والقبيلة والمجتمع والأمة.

إن التناسق العجيب بين كل جوانب، الإنسان وسائر المخلوقات، وتناغمها وتكاملها سواء في ما بينها، أو مع القوانين والمؤثرات النافذة في الكون كله هو ما نستفيده من كلام الله تعالى في هذه الآية: «(لا تبديل لخلق الله)». وهذا يزيد معنى الفطرة إيضاحاً إذ يجعلها مرادفةً للخلق! فكل ما قد خلق الله له أسس وقواعد فطرية لا يمكن تبديلها ولا تغييرها بأي حال من الأحوال: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾. (فاطر 43). إن العلم الحديث يرتكز على هذه القاعدة الربانية. فالعلم كله، بكل نظرياته وطرائقه العملية والتجريبية، يعتمد اعتماداً كلياً على أن الطبيعة، أو الفطرة في المصطلح الإسلامي، ثابتة، متناسقة، متناغمة، لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل.

* * *

فلنتأمل الآن بضع آيات تسبق آية الروم التي استشهدنا بها آنفاً: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون. ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآياتٍ للعالمين، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾. (الروم 24-20).

كل هذه الآيات الكريمة تتحدث عن ظواهر من الفطرة نستطيع دراستها لتكون مادةً لبحوث مستمرة تحرص على اكتشاف أسرارها، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بأساليب العلم الحديث. كما نرى في هذه الآيات كيف يقرن الله تعالى بين المعرفة العلمية والإيمان قرناً لا يتوقعه أحد منا، ولكننا جميعاً نراه بديعاً، آيةً في الجمال. وهذا يؤكد نظرة الإسلام إلى المعرفة العلمية وأنها جزء من الإيمان. وهذه صفة فريدة يتميز بها الإسلام عن كل ما عاده، ولا يشترك فيها مع سواه من الأديان والمعتقدات.

ولنقرأ مرة أخرى قوله تعالى من هذه الآيات: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم. إن في ذلك لآياتٍ للعالمين﴾ (الروم 22). فمن الواضح أن التعقيب في نهاية الآية لا يتحدث عن كل من هو عالم، ولكنها تشير بشكل خاص إلى العلماء الذين يوجهون اهتمامهم لدراسة السماء والأرض، محاولين استجلاء أسرارها، ويدرسون أحوال الأمم والشعوب يتعرفون أسرار اختلافها وتباينها. فهؤلاء هم العلماء الحقيقيون حسب التعريف العلمي الحديث.

لقد تنزلت آيات القرآن الكريم وسوره تباعاً على مدى 23 سنة، وقد وجد الناس فيها التركيز نفسه الذي سمعوه في الآيات التي كانت أول ما أنزل من القرآن، مؤكدةً التناسق الكلي الكامل بين الإيمان والعلم:

- ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم؟﴾ (ق 6)
 - ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ وإلى السماء كيف رفعت؟ وإلى الجبال كيف نصبت؟ وإلى الأرض كيف سطحت؟﴾ (الغاشية 17-20)
 - ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾. (الأنعام 99)
 - ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾. (يونس 101)
 - ﴿أفرأيتم ما تحرثون؟... أفرأيتم الماء الذي تشربون؟... أفرأيتم النار التي تورون؟﴾ (الواقعة 63-68-71)
 - ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض؟﴾ (لقمان 20)
 - ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم؟﴾ (الشعراء 7)
 - ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور؟﴾ (الملك 3)
 - ﴿إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾. (البقرة 164)
 - ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾. (الأنبياء 33)
- وفي كتاب الله 750 آية، تشكل سبع آيات القرآن، كلها على هذه الشاكلة.

* * *

ونجد في هذه الآيات الكريمة التي تتحدث عن الطبيعة قبولاً كاملاً لما في هذا العالم، ولا نجد فيها شيئاً على الإطلاق عن أي نوع من الصراع مع الطبيعة. ففي نظر الإسلام يمكن استخدام المادة في أغراض عديدة جميلة وكريمة، فعالم المادة ليس عالم الشيطان، ولا جسم الإنسان موضع الإثم والمعصية. بل إن الحياة الآخرة، التي يُعدُّ الفوز فيها غاية ما يتمنى الإنسان ويطمح إليه، يصوِّرها القرآن بصور هذه الحياة الدنيا وألوانها.

ونجد بعض الآيات القرآنية تدعو إلى التفكير والتأمل كما تشجع على الدراسة والبحث: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾. (الأنبياء 30) ﴿يُسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل﴾. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ (الرعد 4).

في كل هذه الآيات القرآنية التي استشهدنا بها نجد قاسماً مشتركاً وهو الأمر بالملاحظة والتأمل. وإن الأساس الذي بُنيت عليه قوة الغرب إنما يكمن في التأمل والأسلوب التجريبي الذي أخذته الحضارة الغربية عن روجر بيكون أبو الفلسفة والعلم الإنجليزيين، وهو ما كان إلا

طالباً يدرس العربية. فقد تأثر بكون تأثيراً كبيراً بالمفكرين المسلمين، ولاسيما بآبن سينا الذي كان يعتبره أعظم الفلاسفة بعد أرسطو⁽¹⁾.

ومثل هذا الكلام يقوله كارل برانت مؤلف أوسع كتاب في تاريخ المنطق: "لقد أخذ روجر بيكون من العرب كل النتائج التي تُعزى إليه في مجال العلوم الطبيعية"⁽²⁾.

وتقول جين فورستي في كتابها عن حضارة الغد: "إن تأمل الطبيعة والمجتمع والناس هي الخطوة الأولى في التعليم الأساسي الذي يُعطى لكل الأطفال في العالم الغربي... وإنه لمن السقم أن نتصور أن أي أمة يمكن أن تسير على طريق التقدم إن هي لم تطبق مبدأ الفكر التجريبي"⁽³⁾.

* * *

(1)

(2) الدين

(3)

إن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين وتابعيهم بإحسان على مدى الأجيال المتعاقبة لم يصنّفوا المعرفة الإنسانية أبداً على أساس أنها علوم دينية وعلوم كونية. وإنما اهتموا بهدي رسول الله ﷺ فصنّفوا المعرفة على أنها إما نافعة أو لا نفع فيها، أو ضارة.

والرسول ﷺ يجعل "طلب العلم (أي المعرفة النافعة) فريضة على كل مسلم"، ذكراً أو أنثى. وإذا تأملنا حديث رسول الله ﷺ هذا الذي يتحدث عن "طلب العلم" نفهم لماذا بذل المسلمون في أجيالهم الأولى جهوداً مضنية في اكتساب العلم والمعرفة، يطلبونها أي وجدوها، لا يضرهم أن يتعلموها من مصادرهما أي كانت. ونفهم كذلك أنه كان طبيعياً أن المجتمع المسلم لم يلبث بعد عهد الخلفاء الراشدين الذي تفتحت فيه قلوب الناس للإسلام، أن انطلق يطلب المعرفة النافعة بكل أنواعها واختصاصاتها.

* * *

فلننظر الآن إلى المجتمع المسلم في العصر الذي انفتح فيه على العالم بعد أن اكتسب قدراً من النضج الثقافي والعلمي.

فثقافته بلغت مرحلة النضج بعد أن قطع الإسلام صلة الأمة المسلمة بالشطر الأكبر من ماضيها الذي كانت عليه قبل الإسلام، مثل المعاملات المجحفة، والأخذ بالثأر وغير ذلك من الأعراف الجاهلية. ووضع في مكان ذلك كله ثقافة تتمثل في كتاب جعل أول ما أمر به هو القراءة، وجعل أول قسم يقسمه هو «والقلم وما يسطرون» (القلم 1)

بل إن هذا الكتاب يدعو الناس في كثير من آياته إلى التفكير والتأمل والدراسة والبحث كي نزيد إلى معرفتنا بهذا الكون والخلائق التي تعيش فيه. والقرآن يضع قاعدة للتمييز بين الناس على أساس العلم: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾. (الزمر 9).

وهذا الكتاب قد تلاه وبلغه لنا رسول الله ﷺ الذي يقول "ساعة في طلب العلم خير من ساعة عبادة". وهو الذي يصنّف الناس إلى "عالم، ومتعلم، وجاهل". وهو الذي يسوي بين "مداد العلماء ودماء الشهداء"، ثم يتوج هذا كله بقوله ﷺ: "الحكمة ضالة المؤمن: أنى وجدها فهو أحق الناس بها".

* * *

ونقرأ عن حادثة عجيبة فريدة في التاريخ، ليس لها مثيل من قبل ولا من بعد، وهي أن أمة منتصرة تملي شروط السلام على أعدائها المنهزمين فتطلب من المهزومين أن يقدموا لها كل ما لديهم من كتب علمية وفلسفية كجزء من تعويضات الحرب. نعم، لقد كان هذا أحد شروط المسلمين في اتفاقية السلام التي عقدها مع الروم.

لكننا نجد السابقة الأولى لهذا في المعركة الأولى التي وقعت بين المسلمين والمشركون، فقد جعل رسول الله ﷺ تعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة الفدية التي يدفعها الأسير المشرِك مقابل حريته. أما إطلاق سراح الأسرى بغير ذلك فلم يكن ممكناً إلا بإحدى طريقتين: تبادل الأسرى أو الفدية المالية. ولا نجد دلالة أوضح من هذا على أهمية التعليم في الإسلام، إذ إن خزانة الدولة المسلمة في ذلك الوقت كانت خاوية لا مال فيها.

وللتأكيد على أهمية التعليم، وما يستتبعه من تدريب عملي يمكن الناس من تطبيق ما يعرفون، فإن الرسول ﷺ يقول: "فليعلم المرء جاره، وليتعلم المرء من جاره، كي لا يمستهم العذاب".

عندما دخل العرب فارس ومصر استهوتهم الدراسات العلمية في غندشاپور، وحران، والإسكندرية، فلذلك حرصوا على الانتفاع بها بالرغم من أن اهتماماتهم الأولى كانت تنصب على ظروفهم المعيشية. ومع ذلك نجد خالد بن يزيد بن معاوية الأموي، يهتم في تلك المرحلة المبكرة اهتماماً كبيراً بدراسة الكيمياء والطب وعلم الفلك، فيطلب من بعض العلماء المتخصصين في مصر أن يترجموا عدداً من الكتب في كل هذه الاختصاصات من اللغة اليونانية أو القبطية إلى اللغة العربية. كذلك طلب عمر بن عبد العزيز، خامس الخلفاء الراشدين من ابن ماسرجويه أن يترجم له كتاب الطب الذي خلفه القس أهارون. أما الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور فقد ذهب إلى المدرسة التي كانت مزدهرة في مدينة غندشاپور الفارسية يبحث عن الأطباء، والتقى هناك مع حنين بن إسحاق وأبناء عائلة بختيشع الذين كان لهم أثر كبير في الدراسات الطبية العربية وأسهموا في حركة الترجمة التي سارت على نطاق واسع. كذلك ترجم عبد الله بن المقفع في عهد المنصور عدداً من كتب المنطق والطب التي أخذها الفرس عن

اليونان. وترجم يحيى بن البطريق عدداً كبيراً من كتب أبيقراط وغالين عندما طلب المنصور منه ذلك.

* * *

ولنا أن نسأل كيف أمكن للمسلمين أن يصلوا إلى ذلك المستوى الرفيع من النضج العلمي في مدة قصيرة من الزمن؟ نجد الجواب على هذا السؤال في القرآن نفسه الذي علّم الإنسان المبادئ الأساسية للطرق العلمية. وهو لا يعرض هذه المبادئ تحت عنوان مستقل ولكنه يبثها في آياته كي يتشربها الذين يقرؤون القرآن عن فهم لتصبح هذه المبادئ أساساً فطرياً وضرورياً يُبنى عليه تفكيرهم.

فالعلم لا يقول عن شيء ما إنه حقيقة إلا إذا قامت أدلة قاطعة لا تقبل النقد تؤكد ذلك. وقد أخذ المسلمون هذا المبدأ من عدد من الآيات القرآنية مثل: ﴿قل: هاتوا برهانكم﴾ (الأنبياء 24) والنمل (64)، ﴿قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (البقرة 111)، ﴿قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟﴾ (الأنعام 148) وهذه الآيات الكريمة، ومثلها كثير، تضع أساس المعرفة القائمة على الدليل والبرهان.

والعلماء يحاذرون دائماً من أي محاولة لإكساب ما هو ظني ثوب الحقيقة الثابتة، أو لإعطاء ما هو تخميني ثقلاً إضافياً يجعله كبير الاحتمال. أما المسلمون فيستندون في هذا إلى آيات قرآنية عديدة مثل: ﴿إن يتَّبِعُونَ إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ (النجم 23)، ﴿ما لهم بذلك من علم. إن هم إلا يظنون﴾ (الجاثية 24)، ﴿وما يتَّبِع أكثرهم إلا ظناً، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ (يونس 36).

والعلم يرفض اتباع أي رأي دون أن يقوم عليه دليل مقنع، ولا يلتفت إلى من يؤيد هذا الرأي بين كبار العلماء إذا لم يقيم عليه الدليل. أما المسلم فيأخذ هذا المبدأ من آيات قرآنية عدة مثل: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ (البقرة 170).

أما في تطبيق قواعد التفكير المنطقي فيعتمد العلم على مبدئين أساسيين أولهما أنه لا يمكن أن يكون هناك أي تناقض على الإطلاق بين الحقائق الثابتة، والثاني أن الطبيعة متنسقة ومستقلة. فما ثبت أنه صحيح في وقت ما يظل صحيحاً في كل وقت، لأنه لا علاقة للحقيقة بالزمان وبالمكان. ونجد كلا المبدئين مؤكّدين في القرآن الكريم، إذ تشير عدة آيات إلى المبدأ الأول، مثل: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾. (المالك 3)، ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ (فاطر 43)، ﴿لا تبدل خلق الله﴾. (الروم 30).

ويعتمد العلم في استقراء الحقيقة على الاستخدام الدقيق لحواس الإنسان وملكاتة. وكثيراً ما يوجّهنا القرآن الكريم إلى ضرورة استخدام حواسنا وملكاتنا، مع استخدام عقولنا كذلك. ولقد

أوردنا من كلام ربنا جل وعلا آيات عديدة تحت المسلمين والناس كافة أن ينظروا إلى ما بين أيديهم من السماء والأرض وأن يدرسوا الظواهر الطبيعية وكيفية عملها. وها نحن نستشهد بالمزيد منها: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾. (النحل 78)، ﴿ولا تَفْقُ ما ليس لك به علم. إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾. (الإسراء 36). وهذه الآية الأخيرة تشير إلى المبادئ الرئيسية الثلاثة التي هي جماع أساس البحث العلمي، وهي: أولاً، على الإنسان ألا يتبع شيئاً ما لم يعرفه معرفة يقينية. ثانياً، طريق الوصول إلى الحقيقة هو في الملاحظة الدقيقة والتفكير السليم. ثالثاً، على الناس أن يؤمنوا بالحقيقة التي يتوصلون إليها بالملاحظة وإعمال الفكر، فهم مسؤولون أمام الله عن ذلك.

* * *

أما الأسس التي حددها الله تعالى لمهمة النبي ﷺ فتوجز هذه الآية القرآنية الكريمة:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ (الجمعة 2).

وواضح من هذه الآية الكريمة أن النبي ﷺ مكلف بأربعة أمور:

(1) تلاوة آيات الله.

(2) تزكية الناس.

(3) تعليمهم كتاب الله.

(4) تعليمهم الحكمة النبوية.

وهذا يعني أن القرآن الكريم يجلي بوضوح أن النبي ﷺ لم يكلف بأن يتلو آيات الله فقط ثم يترك الناس يفسرونها ويطبّقونها كيف يشاؤون، وإنما كلف بأن "يعلمهم" الكتاب. ولما كان تعليمهم الكتاب وحده لا يكفي فقد كلف بأن يعلمهم كذلك الحكمة النبوية، وهي أمر إضافي يزيد على الكتاب ويتألف من جماع ما أثر عنه من شرح وتفسير لآيات القرآن، وهو ما نسميه بالسنة. ولكن هذا لا يكفي وحده كذلك، ومن ثم صدر الأمر إلى النبي ﷺ بأن يزكي الناس، وهذا يعني بلغتنا اليوم أن يعلمهم كيف ينقلون ما تعلموه إلى حيّز التطبيق العملي.

وقد نص النبي ﷺ على ذلك إذ قال: "إنما بعثني الله معلماً وميسراً"⁴.

* * *

إن الجانب العلمي والتعليمي في الإسلام ما هو إلا أحد المفاهيم القيميّة الإسلامية، فالدين قد جعله الله تعالى مجموعة من القيم، وجعل القيم بدلاً منه في قوله تعالى: ﴿قل: إنني هداي ربي

إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً. (الأنعام 161). وهذه القيم تشكل بنيان الإسلام، وأي محاولة لفهم الإسلام تتجاهل هذه القيم لابد أن يكون مآلها إلى الفشل. وهنا أحب أن أضيف إلى قيمة "المعرفة" التي بدأت بها هذا البحث ست قيم أساسية أخرى وهي: الحرية، والتعددية، والكرامة، والعدالة، والأخلاق، والوعي البيئي.

ولكنني قبل أن أنتقل إلى الحديث عن هذه القيم أودُّ أن أحتاط لنفسي فأقول: إنني أتحدث عن الإسلام ولا أتحدث عن ممارسات المسلمين. فالإسلام يتمثل في آيات القرآن الكريم وفي ما أثر عن النبي ﷺ من أقوال وأعمال صحيحة ثابتة. أما بعد وفاة الرسول ﷺ فإن سنة الخلفاء الراشدين المهديين هي وحدها التي يترتب علينا أن "نعض عليها بالنواجذ"⁵. أما بعد ذلك فإن أفعال كثير من المسلمين، حتى في تلك العصور الزاهرة، كانت بعيدة جداً عن الإسلام. وإنني إذ أستبعد هذه الأعمال والممارسات من الإسلام فإنما أنا مستن بما قاله النبي ﷺ: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"⁶.

وأشير كذلك إلى أن المصطلحين "مسلم" و"مؤمن" يستخدمان في كتاب الله تعالى وفي الأحاديث النبوية بمعنى "الإنسان". فإذا قرأنا هذين المصطلحين في آية أو حديث نبوي يتحدثان عن المجتمع المسلم فهما لا يستبعدان غير المسلمين من مواطني هذا المجتمع، لأن غير المسلمين يعاملون معاملة المسلمين سواء بسواء. وقد جاء النص على هذا واضحاً في صحيفة المدينة، بل قل دستور الدولة الإسلامية في المدينة.

* * *

المفهوم القيمي الثاني هو مفهوم الحرية التي يعتبرها الإسلام أكبر أهمية من الحياة نفسها. والدليل على هذا موجود في كتاب الله تعالى: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ (البقرة 191)، ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ (البقرة 217)، وهاتان الآيتان إعلان صريح أن الفتنة، التي تعني الحرمان من الحرية، هي أشد وأكبر من القتل الذي هو حرمان من الحياة، فمن المنطقي إذن أن نقول إن الحرية أكبر وأهم من الحياة نفسها. وليس هذا بمستغرب في شيء إذا نحن ذكرنا أن إنسانية الإنسان إنما تتركز وتتأصل بأن يكون حراً، وأن الله تعالى قد أسجد ملائكته للإنسان، المخلوق الحر الذي أعطاه الله حرية الاختيار أن يكون مؤمناً أو غير مؤمن، مطيعاً أو عاصياً، خيراً أو شراً: ﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. (الكهف 29).

والله سبحانه وتعالى الذي أعطى الإنسان حرية الاختيار أعطاه فضلاً عنها الأدوات التي يستطيع بها أن يفكر ويبنى اختياره على معرفة. وأرسل إليه الرُّسل، وأنزل له الآيات، لكي تساعد في الاختيار الصحيح. لكن يبقى الاختيار النهائي هو ما يختاره الإنسان الفرد، رجلاً كان أو امرأة.

وإذا كانت إنسانية الإنسان تتجسّد في حريته فإن هذه الحرية تبقى بلا معنى إذا لم تكن مصحوبة بالمسؤولية، غير أن المسؤولية لن تكون في هذه الحياة الدنيا. بل هنالك حياة أخرى

يحاسب فيها الناس على ما قدّموا من أعمال في هذه الحياة الدنيا فيلقون جزاءهم ثواباً أو عقاباً، حسب أعمالهم. وهذا كله من أمر الله تعالى. مما يعطينا الاطمئنان الكامل بأن الذي يحاسبنا ويصدر الحكم علينا هو الله تعالى الذي لا يظلم أحداً. ﴿ وإن جادلوك فقل: الله أعلم بما تعملون. الله يحكم بينكم يوم القيامة في ما كنتم فيه تختلفون. ﴾ (الحج 68-69)، ﴿ قل: آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم. الله ربنا وربكم. لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لا حجة بيننا وبينكم. الله يجمع بيننا، وإليه المصير. ﴾ (الشورى 15)، ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة. إن الله على كل شيء شهيد. ﴾ (الحج 17).

* * *

والمفهوم الثالث هو التعددية، فالإسلام يعترف بالآخر اعترافاً لا يقوم على شيء من التفرقة والمهانة مثلما كان يقسم الناس في القديم إلى "إغريق وبرابرة" أو إلى "رومانيون وبرابرة"، وإنما هو اعتراف يقوم على المساواة والعدل:

- ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ (الكافرون 6).

- ﴿ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ﴾ (كما جاء في دستور المدينة).

وغني عن القول إن هذا الاعتراف يستتبع أخلاقيات للحوار يؤسسها القرآن الكريم:

- ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (النحل 125)

- ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾. (العنكبوت 46)

والاعتراف بالآخر يتطلب دائماً السعي لإيجاد أرضية مشتركة:

- ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾. (آل عمران 64)

- ﴿ وإلهنا وإلهكم واحد ﴾. (العنكبوت 46)

- ﴿ الله ربنا وربكم. لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لا حجة بيننا وبينكم. الله يجمع بيننا. ﴾ (الشورى 15)

ومفهوم التعددية يعني تقبل التنوع والاختلاف. فالله سبحانه يقول إنه خلق الناس ليكونوا مختلفين، وأن الاختلاف سيظل موجوداً بينهم: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾. (هود 118-119) ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى لا يرضى بزوال هذه الاختلافات التي فطر الناس عليها، ولذلك فإنه جل وعلا يقرّر أنه: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾. (البقرة 256). وهو سبحانه يقول لنبيه ﷺ: ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾. (الغاشية 22).

ويقول له: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾. (ق 45). ويقول ربنا جل وعلا مخاطباً نبيه كذلك: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟﴾ (يونس 99).

وقد أقام الإسلام دائماً علاقاته مع الأديان الأخرى على أساس الاحترام المتبادل. وبعض هذه الأديان، مثل النصرانية واليهودية والمجوسية والهندوسية، قد عاشت قروناً طويلة جنباً إلى جنب مع الإسلام، حتى في العصور التي كان المسلمون فيها يشكلون الدولة العظمى في العالم كله. ولقد كان ممكناً وقت ذاك إجبار الناس على اعتناق الإسلام، لكن شيئاً من هذا لم يحدث قط، فالإسلام لا يرضى إطلاقاً أن يكون الإكراه سبيلاً إلى نشر رسالته، إذ لا بد أن يكون اعتناق أي فرد للإسلام على أساس الاختيار الحر.

ولقد عاشت كل هذه الأقوام في ظل الإسلام بموجب عقد مدني يسمى عقد الذمة الذي يعطي أبناءهم مثل ما للمسلمين من حقوق، ويفرض عليهم مثل ما على المسلمين من واجبات. ولقد كانت لهم حرية دينية كاملة، ولهم كنائسهم ومعابدهم، بل وشعاراتهم الدينية وملابسهم المميزة، فلم يكره أحد على تغيير زيّه كي يرتدي زياً "إسلامياً". بل على النقيض من ذلك نجد بعض الروايات تقول إن المسلمين طلبوا من غير المسلمين الالتزام بأزيائهم الخاصة. فعندما تعطي الحرية للناس لاختيار دينهم ومعتقداتهم لا بد أن تكون لهم الحرية في ممارسة أديانهم. ولقد ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك فوضع قاعدة تقول إنه لا يجوز إرغام غير المسلم على الامتناع عن شيء يبيحه له دينه لمجرد أنه محرم على المسلمين، مثل أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. ولقد سمح للنصارى في بلدان العالم الإسلامي أن يشربوا الخمر، كما سمح لهم بتربية الخنازير، لأن ذلك مما يسمح به دينهم. بل إن المذهب الحنفي يفرض على المسلم الذي يتلف خمرًا يملكها شخص غير مسلم أن يعرض صاحبها عما أتلفه، بالرغم من أن الإسلام يعتبر الخمر أو شرب الخمر أم الخبائث.

* * *

أما المفهوم القيمي الرابع فيتمثل في أن الإسلام يكرم الإنسان ويعتبر له كرامة محترمة لمجرد أنه إنسان، رجلاً كان أو امرأة: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾. (الإسراء 70)، والله سبحانه قد أسبغ على الإنسان نعماً كثيرة، ظاهرة وباطنة، واستخلفه في الأرض، فجعله أكرم خلقه فيها، بغض النظر عن لون عينيّه أو بشرته، أو نعومة شعره، أو شكل أنفه، أو مكانته في المجتمع، أو حتى معتقده الديني. فالإنسان مكرم لمجرد أنه إنسان، فقد جاء في الحديث الصحيح: مرّت جنازة أمام رسول الله ﷺ فوقف، ف قيل له إنها جنازة يهودي، فقال: "أو ليست نفساً؟" وهكذا علم رسول الله ﷺ صحابته الكرام وسائر المسلمين أن هذا الاحترام حق لكل الناس لأن الإنسان مكرم من حيث هو إنسان. والشرعية الإسلامية تنص على حماية الحياة الإنسانية كلها، إذ يقول

الله تعالى: ﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾. (المائدة 32).

وكرامة الإنسان أمر لا يمكن أن يكتشفه علم من العلوم الإنسانية، لا علم الأحياء ولا علم النفس ولا سائر العلوم، لأن كرامة الإنسان مسألة روحانية. بل إن "الملاحظة الموضوعية" تسهل للعلم أن يؤكّد الفوارق بين الناس مما قد يجعل "التمييز العنصري القائم على العلم" أمراً ممكناً، بل ومنطقياً كذلك.

إن الإنسان إما أن يكون خيراً أو شريراً، ولكنه لا يمكن أن يكون بريئاً أبداً. فمنذ اللحظة التي طرد فيها آدم من الجنة لم يستطع الإنسان أن يتخلّص من حرّيته ليعود بريئاً كالحَيوان أو طاهراً كالملاك. بل كان لابد له من الاختيار ليستخدم حرّيته ويكون إما إنساناً صالحاً أو شريراً، أو ليكون، بكلمة واحدة، إنساناً. وهذه القدرة على الاختيار، بغض النظر عن النتيجة، هي أعلى صورة للحياة في هذا الكون.

إن الإنسانية لا تتمثّل في الصدقة أو العفو أو المسامحة، وإن كان كل ذلك من نتائجها ولكن الإنسانية تتمثّل أولاً في التأكيد على حرية الإنسان وقيّمته كإنسان.

إن كل ما يحقّر شخصية الإنسان وينزل به إلى مستوى الأشياء ليس إنسانياً. فعلى سبيل المثال إن من الإنسانية أن نقول إن الإنسان مسؤول عن أفعاله ويمكن أن يعاقب عليها، وليس إنسانياً أن نطلب منه أن يندم، أو يغير رأيه، أو يحسن حاله، أو أن يصفح عنه. وإنه أقرب إلى الإنسانية أن يسأل المرء عن معتقداته ويحاسب عليها من أن يفرض عليه تغييرها مع إعطائه الفرصة التي درج الناس على تسميتها "أخذ نواياه الطيبة بعين الاعتبار". وهذا يعني أن هناك عقوبات إنسانية وعفواً ينافي الإنسانية كليةً. لقد كان قضاة محاكم التفتيش يزعمون أنهم يحرقون الجسد كي ينقذوا الروح. أما قضاة محاكم التفتيش في عصرنا هذا فهم على النقيض من ذلك لأنهم "يحرقون" الروح بدلاً من الجسد.

إن أي استغلال للناس، حتى من أجل مصلحتهم، يعتبر غير إنساني. فالذي يفكر بالنيابة عن الناس ليحررهم من مسؤولياتهم والتزاماتهم يهدر إنسانيتهم، فصفتنا الإنسانية الأولى هي أننا مسؤولون. وعندما أعطى الله تعالى للإنسان حرية الاختيار، ووعده بالثواب، وتوعّده بالعقاب فإنه - سبحانه - أكّد في أفضل صورة قيمة إنسانية الإنسان. ولا بد لنا أن ننحو هذا المنحى، فنترك الإنسان يجاهد لنفسه بدلاً من أن نصنع له ما يحتاجه: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد... ألم نجعل له عينين؟ ولساناً وشفّتين؟ وهدينا له النجدين؟ فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة؟ فك رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة، أو مسكيناً ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾. (البلد: 4 - 17).

كذلك يمكن أن يكون التعليم تعليماً لا إنسانياً، وهو التعليم الموجّه الوحيد القالب، والذي لا يعلم المرء أن يفكر تفكيراً مستقلاً بل يعطيه الإجابات كلها جاهزة، أو إذا كانت غايته أن يُعَدَّ الناس لأداء وظائف مختلفة بدلاً من أن يوسّع مداركهم وأفاقهم ليمارسوا حريّتهم.

* * *

أما المفهوم القيمي الخامس فهو العدالة. والإسلام يعتبر العدل قيمةً ضرورية، بل هي الغرض الرئيسي من إرسال الرسل: "لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط". (الحديد 25).

وفي القرآن الكريم إشارات واضحة إلى ضرورة أن تكون العدالة ظاهرة في كل شيء:

- ففي الكلام: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾. (الأنعام 152)
- وفي القضاء: ﴿وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾. (النساء 58)
- وفي إصلاح ذات البين: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾. (الحجرات 9)
- وفي الولاية: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾. (النساء 127)
- والله سبحانه وتعالى يحذرننا من كل ما من شأنه الإجحاف والظلم:
- ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ (النساء 135)
- ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومَ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا﴾ (المائدة 8)
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾. (النساء 135).

وفي اللغة العربية التي تنزل بها القرآن نجد أن كلمة "العدالة" تعني المساواة كذلك ونجد إشارة واحدة إلى ذلك في صحيفة المدينة، أي دستور الدولة الإسلامية التي أقامها رسول الله ﷺ في المدينة، تؤكد حق كل من ينتمون إلى المجتمع المسلم، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، في العدالة والمساواة في المعاملة: وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة. 8

والله سبحانه وتعالى قد حرّم الظلم على نفسه، وجعله حراماً بين الناس: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾. (النساء 40).

والمساواة بين الناس قيمة روحية وليست حقيقة طبيعية أو مادية أو فكرية. بل هي قيمة خلقية للإنسان، شأنها شأن الكرامة الإسلامية، أو شأن المساواة الكاملة في الشخصية الإنسانية. وفي مقابل ذلك نجد الناس متباينين جداً وغير متكافئين في الجوانب المادية والفكرية والاجتماعية، أو

كأفراد ينتمون إلى جماعات أو طبقات أو فئات سياسية أو شعوب. وإذا أهدرت قيمة الإنسان الروحية، التي تجعله كائناً حياً متديناً، تنهدم القاعدة الوحيدة لتساوي الناس. وتعود المساواة مجرد كلمة خالية من الأساس والمضمون، فلا تلبث أن تتراجع أمام ما هو بين من تفاوت الناس، أو أمام رغبة الإنسان الفطرية في السيطرة على غيره وفرض طاعة أمره، لينعدم التكافؤ بين الناس. وإذا نبذ منهاج الدين فإنه يترك فراغاً لا تلبث أن تملأه صور شتى من التفاوت: عرقياً أو قومياً أو اجتماعياً أو سياسياً.

* * *

الأخلاق هي المفهوم القيمي السادس، وهي في حقيقتها تعني أن يتمثل الدين في قواعد للسلوك، أو بعبارة أخرى موقف المرء تجاه غيره من الناس مع مراعاة حقيقة وجود الله سبحانه. وهي تفرض علينا أن نؤدي واجباتنا أيًا كانت الصعوبات والأخطار التي تواجهنا في سبيل أدائها. ولا يمكن أن يكون هذا الطلب منصفاً وعادلاً إلا إذا كانت هناك حياة أخرى غير هذه الحياة. تلك هي نقطة البدء المشتركة بين الأخلاق والدين.

إن مفهوم الأخلاق لا يعود على المرء بالنفع أو الفائدة بالمعنى العام لهاتين الكلمتين. فهل يمكن أن نقول إن قاعدة "النساء والأطفال أولاً" قاعدة نافعة من الوجهة الاجتماعية؟ وهل تحقيق العدالة وقول الصدق عمل نافع؟ في إمكان كل منا أن يتصور قائمة طويلة من الأوضاع التي يكون فيها الظلم أو الكذب أكثر نفعاً. فعلى سبيل المثال نجد التسامح الديني أو السياسي أو العرقي أو القومي غير ذي منفعة بالمعنى المعتاد لكلمة المنفعة. بل إن قتل الخصوم أكثر نفعاً في المنظور العقلي البحت. وحيثما وجد التسامح فإنه لا يستند إلى المصلحة، بل يستند إلى المبدأ أو إلى الإنسانية أو إلى ذلك العقل المجرد. كذلك فإن رعاية المسنين والعجزة ورعاية المعوقين والمرضى الذين لا يرجى لهم شفاء أمور لا تجر منفعة مادية. لذلك لا يمكن أن تخضع الأخلاق لمعايير المصلحة والمنفعة. بل إن كون السلوك الأخلاقي نافعاً في بعض الحالات إنما يعني أن شيئاً ما قد أصبح أخلاقياً، لأنه كان نافعاً في حقبة معينة من تاريخ الإنسانية. والواقع أن هذا النوع من المصادفات نادرة الحدوث.

وبينما نجد الأخلاق الدينية ترفع عالياً مبدأ مقاومة الشر، الذي نجده إما واضحاً صريحاً أو ضمنيّاً في كل النظم الخلقية القائمة على الدين، فإن الأخلاق القائمة على المنفعة تأخذ بمبدأ مناقض هو مبدأ التبادل. فأخلاق المنفعة تؤكد أن أي شخص يلتزم بالقيم الأخلاقية في الوقت الذي لا يلتزم بها أحد غيره إنما يكون تصرفه منافياً للعقل. وهذه هي الخلاصة التي ينتهي إليها مبدأ المنفعة. وهذا يظهر بجلاء أن النظام الخلقي القائم على أساس المنفعة ليس في حقيقته نظاماً أخلاقياً، وإنما هو ينضوي تحت مظلة السياسة لا مظلة الأخلاق.

لا توجد علاقة تلقائية بين معتقدات الإنسان وسلوكه، فالسلوك الإنساني لا يستند بصورة كلية أو رئيسية على ما نختاره بملء إرادتنا، ولكن السلوك الإنساني أقرب إلى أن يكون نتاجاً للتربية

والقيم التي تلقيناها في الصغر منه إلى ما نختاره من بعد من معتقدات فلسفية أو سياسية. فالذي يتعلم احترام الكبار، والوفاء بالعهد، والحكم على الناس بناءً على شخصياتهم، ويتعلم حب الآخرين ومساعدتهم، والالتزام بالصدق، وكره النفاق، أو يتعلم البساطة وعزة النفس، يلتزم بهذه الصفات أيًا كان رأيه السياسي أو فكره الفلسفي. وعلى أية حال فإن هذه الأخلاق ترجع إلى دين، ولكننا هذه المرة نتحدث عن دين منقول. فالتعليم قد نقل مجموعة من المفاهيم الدينية الصحيحة في ما يخص علاقة الإنسان بالإنسان، ولكنه لم ينقل الدين الذي تُستمد منه هذه القيم الخلقية. مما يعني أن خطوة واحدة فقط تفصل بين الاستغناء عن الدين والاستغناء عن النظام الأخلاقي. وبعض الناس لا يخطون هذه الخطوة أبداً ولذلك يظلون على فصام بين دين لا يتبعونه، وأخلاق دينية يتبعونها بالرغم من أنهم لا يؤمنون بالأساس الذي بُنيت عليه. وهذا يؤدي إلى ظاهرتين تضيفان تعقيداً جديداً وهما الملحدون الأخلاقيون والمتدينون اللاأخلاقيين.

إن الواجب والمصلحة هما القوتان الدافعتان لكل عمل بشري، ولكنهما قوتان متعارضتان تسيران في اتجاهين مختلفين. فالواجب يتجاوز المصلحة دائماً، والمصلحة لا علاقة لها بالأخلاق، إذ إن الأخلاق ليست أمراً عملياً وهي لا تستند إلى منطق. فلو أن شخصاً دخل بيتاً يحترق معرضاً حياته للخطر كي ينقذ طفلاً من أبناء جيرانه ثم خرج بعد ذلك يحمل الطفل ميتاً على يده، فهل يمكن أن نقول إن عمله غير ذي قيمة، لأنه كان عملاً فاشلاً؟ إن الأخلاق هي التي تعطي قيمة عالية لهذه التضحية التي هي في ظاهرها غير مفيدة، بل وفاشلة.

والعدالة المهزومة التي نتعاطف معها وتهفو لها قلوبنا تبدو كما لو أنها ليست حقيقة من حقائق حياتنا الدنيا. فهل نستطيع أن نجد من دنيانا مبررات مادية أو منطقية أو فكرية أو غير ذلك تبرر عمل بطل يسقط صريعاً لأنه يؤثر التمسك بالعدل والفضيلة؟ لو كان عالمنا هذا يعيش في بُعدي الزمان والمكان فقط وكانت الطبيعة لا تفرق بين العدل والظلم، فإن التضحية التي يبذلها بطل من الأبطال تبدو تافهة لا قيمة لها. ولكننا جميعاً نرفض أن نعتبرها كذلك مستندين في ذلك إلى الوحي الإلهي الذي يحدثنا عن عالم آخر يقترن بمعانٍ تختلف عن مفاهيمنا، وقوانين مغايرة لما نطبقه في عالمنا. ونحن نؤيد هذا العمل الذي يبدو في ظاهره بعيداً عن العقل والمنطق، متعاطفين معه بكل قلوبنا، من غير أن نسأل عن أية دوافع أو تفسيرات تكمن وراءه. إن عظمة العمل البطولي لا تكمن في نجاحه، إذ يندر أن تحقق الأعمال البطولية ثماراً عاجلة. وليست عظمة العمل البطولي في المنطق الذي يقوم عليه، إذ غالباً ما يتعارض المنطق معه. وهذا يؤكد بالنسبة لنا فكرة العالم الآخر، فنحن نرفض دائماً أن نعتبر الأبطال الذين يسقطون أشخاصاً مهزومين، بل نعتبرهم فائزين رغم أن فوزهم لا يكون في عالمنا هذا.

قلة أولئك الذين يلتزمون في عملهم كله بقواعد الفضيلة وقوانينها، ولكن هذه القلة تمثل مفخرة تعتر بها البشرية كلها. على الصعيد الشخصي تمر بنا لحظات قليلة يكون عملنا فيها ملتزماً بما يفرضه قانون الواجب، لكن هذه اللحظات النادرة التي نسمو فيها فلا نحسب حساب مصالحنا الذاتية ومنفعتنا الشخصية هي اللحظات الباقية أبداً في حياتنا.

إن كل إنسان يتطَّلع إلى أن يعيش في انسجام مع ما يمليه عليه ضميره، مستنداً إلى القوانين الأخلاقية. وقد لا يكون هذا سهلاً بالنسبة لبعض الناس، لكننا جميعاً نعجب بالفضيلة والعمل الصالح. وكثيرون منا لا يجدون وسيلة يستطيعون بها رفع الظلم، لكن كل إنسان يستطيع أن يكره الظلم ويمقته. وفي كراهية الظلم هذه نجد معنى التوبة. إن الأخلاق لا توجد في العمل ذاته، ولكنها موجودة في رغبة الإنسان أن يعيش إنساناً فاضلاً، وفي شحذ إرادته، وفي جهاده للوصول إلى الأسمى. وليس في مقدور الإنسان أن يكون كائناً كاملاً، بلا خطيئة ولا ذنب، لكن الندم على الذنب بعد ارتكابه هو ما يجعل المرء إنساناً.

هنا يطرح سؤال وهو: هل يحكم على الأعمال بالنوايا أو بالنتائج؟ إن الحكم على أساس النوايا هو الرسالة التي يؤكدها كل دين، أما الحكم بالنتائج فهو شعار كل عقيدة أخرى أو كل ثورة. هنا نجد أساسين متناقضين من المنطق أحدهما لا يعطي اعتباراً لهذا العالم، أما الآخر فلا يعطي اعتباراً للإنسان.

الإنسان إنسان صالح إذا أراد أن يكون صالحاً حسبما يفهم معنى الصلاح. غير أن هذا "الصلاح" قد يكون أمراً سيئاً في رأي شخص آخر. والإنسان سيئ إذا أراد أن يكون سيئاً، حتى ولو كان هذا السوء "صالحاً" في رأي الآخرين، فالمسألة ترتبط دائماً بالإنسان نفسه وبعالمه الخاص به. وفي هذه العلاقة الضميرية والروحية يقف كل إنسان وحيداً تماماً، وحرراً حرةً كاملة. وهذا هو معنى كلام سارتر الذي يقول: إن كل إنسان مسؤول مسؤولية مطلقة وأنه "لا يوجد في جهنم ضحايا أبرياء أو أشخاص أبرياء صدرت عليهم أحكام خاطئة".

* * *

يوجّه الله سبحانه وتعالى أنظار عباده إلى أن البيئة التي يعيشون فيها أكبر وأضخم كثيراً مما يتصورون، وأنها ميسرة طائفة، ومسخرة لهم. فكل ما عليهم هو أن ينتفعوا بها أفضل منفعة، يقول الله تعالى: ﴿الله الذي سخر لكم البحر﴾ (الجمعة 12). ﴿وسخر لكم الأنهار﴾ (إبراهيم 32). ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار﴾ (إبراهيم 33). ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ (الحج 65). ويقول سبحانه: "وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه" (الجمعة 13). والله سبحانه وتعالى قد خلق هذه البيئة كلها بالحق: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ (الحجر 85 الروم 8 الأحقاف 3). وكلمة "بالحق" في المصطلح الإسلامي تعني ما يخدم مصالح الناس وينفعهم ولذلك فإن الحفاظ على البيئة إنما يكون بالالتزام بما يصلح الناس ويدفع عنهم ما يمكن أن يتعرضوا له من الأذى.

والله سبحانه يحرم الفحشاء والفسوق والعصيان، وكلمة "العصيان" تشمل في معانيها العدوان والفساد.

وينبها الله سبحانه وتعالى إلى ما يمكن أن يقع - وما نشاهده واقعاً في أيامنا هذه - عندما يفرط الإنسان في استغلال البيئة دون أن يلقي بالاً إلى ما يفسده من توازن فيها إذ يقول الله

تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ (الشورى 27)، ويقول جل وعلا: ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾. (الشعراء 151-152).

المشكلة إذن ليست في الاستفادة بما تجود به السماء أو بالنعمة الموجودة في الأرض، فذلك أمر طبيعي ينتج من أن هذه الأشياء مسخرة للإنسان، أو هي من عمل الإنسان في عمارة الأرض. ولكن المشكلة إنما هي في التبذير والطغيان والإسراف والعدوان، وهي كلها مترادفة في الدلالة على الزيادة والإفراط وعدم مراعاة التوازن، كما أنها كلها تؤدي إلى الإخلال بالتوازن الموجود في الطبيعة إخلالاً يفسد بيئة الإنسان ويجعلها غير صالحة لحياة البشر. والله سبحانه قد نهانا عن الإفساد في الأرض في مواضع عدة من كتابه العزيز:

- ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ (البقرة 60).

- ﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ (الأعراف 85).

- ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ (القصص 77).

ويذكر الله سبحانه وتعالى على وجه الخصوص الفساد الذي يؤدي إلى إتلاف النبات والإضرار بالحياة الحيوانية، فيقول سبحانه: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل. والله لا يحب الفساد﴾. (البقرة 204-205).

ويضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً في كتابه العزيز للقريّة التي ﴿كانت آمنة مطمئنة يأتوها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾. (النحل 112)، ويقول الله سبحانه وتعالى عن مدن وقرى أخرى: ﴿وما كان الله ليلظلمهم﴾ (العنكبوت 40)، غير أن أهلها كانوا "يبيغون في الأرض بغير الحق. يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾. (يونس 23).

* * *

ولتحقيق هذه المفاهيم الخلقية السبع الأساسية في حياة المسلمين اليومية لابد لنا من انتهاج خمسة أساليب وهي: العبادة والجهاد والإحسان والصدقة والمعروف.

عندما نتحدث عن العبادة يجب أن نأخذها بمفهومها القرآني، مبعدين عن أذهاننا الظلال التي ترافق معنى كلمة: worship والتي ترتبط بالطقوس والشعائر. فالعبادة بالمفهوم القرآني تشمل كل ما يرضي الله سبحانه من أعمال تحفظ على الإنسان إنسانيته، أي تحافظ على روحه وجسده في وقت معاً، وأعمال ترعى المجتمع وتحفظ المصلحة العامة وتعزّزها. بل إن مصطلح الدين في الغرب إنما يعني الإيمان الفردي المحدود، ولا يخرج عن كونه علاقة فردية مع الله تعالى، ولذا فهو يقتصر على المعتقدات وممارسة الشعائر. لكن الإسلام ليس مجرد دين، لأنه يشمل الحياة

كلها. والإسلام اسم يدل على وحدة الروح والمادة في أعلى مظاهرها وهو الإنسان نفسه. فالحياة الإنسانية لا تكون كاملة إلا إذا شملت رغبات المرء الحسية والروحية معاً. وفي نظر الإسلام فإن كل خلل في الحياة الإنسانية إنما يرجع إلى إنكار الأديان لحاجات الإنسان البيولوجية، أو إلى إنكار القوى المادية لحاجات الإنسان الروحية.

"آمنوا وعملوا الصالحات" – تتكرر هذه الجملة أكثر من ثمانين مرة في القرآن الكريم مؤكدة ضرورة اقتران أمرين اثنين يجنح الناس دائماً إلى التفريق بينهما. وهي تعبر عن الفارق بين الدين، بمعنى الاعتقاد، والأخلاق، بمعنى العمل الصالح، وتضفي عليهما صفة الإلزام والاقتران معاً. بل إن القرآن يعرض علاقة عكسية تبين كيف أن الدين يمكن أن يكون مدفوعاً بدافع قوياً من الأخلاق: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ (آل عمران 92)، فالقرآن لا يقول هنا "آمن حتى تنال البر" وإنما يقول "أنفق كي تنال البر وتؤمن". أما كيف يقوي المرء إيمانه ليتثبت ويؤكده فالجواب هو: أن العمل الصالح هو الذي يحقق قوة الإيمان.

العبادات واجبات دينية تترتب على كل مسلم، رجلاً كان أم امرأة، أما تحقيق المنفعة ودفع الضرر فهي واجبات دينية تترتب على المجتمع الإسلامي كله، رجالاً ونساءً. ولا بد من أداء هذه الواجبات، لأنها إذا أهملت فلم يؤديها أحد أثم المجتمع كله، وكل فرد فيه. ولهذا فإن كل مسلم يعتبر فرض الكفاية أمراً ملزماً له شخصياً، بل على المسلمين أن يسارعوا إلى أداء هذه الفروض الكفائية امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة 148) ولأمر النبي ﷺ: "بادروا بالأعمال الصالحة".

* * *

يعطي المجتمع الإسلامي الأول في مكة صورة لتطبيق الأسلوب الثاني، وهو الجهاد، منذ أيام الإسلام الأولى. وخلافاً لما يتبادل إلى أذهان الناس اليوم من معنى كلمة الجهاد، فإنها إنما تعني "بذل قصارى الجهد لمرضاة الله، بضبط النفس ونشر الدعوة، والدفاع عن النفس، ونصرة المظلوم، وبذل المال في سبيل الله".

ولعلنا نفهم معنى هذا الأسلوب فهماً أفضل إذا نحن درسنا دلالة هذا المصطلح على مر التاريخ.

ففي المرحلة المكية الأولى كان الجهاد لا يعني أكثر من إفحام الخصوم: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ (أي بالقرآن) جهاداً كبيراً ﴿(الفرقان 52)﴾، ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾. هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم﴾. (الحج 78).

أما في المرحلة المتأخرة من العهد المكي فكانت كلمة الجهاد تعني ضبط النفس وعدم الرد على العنف بالعنف: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾. أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا؟ ساء

ما يحكمون. من كان يرجو لقاء الله، فإن أجل الله لآتٍ، وهو السميع العليم. ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه. إن الله لغني عن العالمين». (العنكبوت 2 - 6).

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة؟﴾ (النساء 77).

أما بعد الهجرة إلى المدينة فقد أذن الله تعالى بالقتال لرفع الظلم وتحقيق العدالة وإعادة الحقوق إلى أصحابها:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرا. ولينصرن الله من ينصره. إن الله لقوي عزيز﴾. (الحج 39-40).

غير أن الإسلام أوضح في الوقت نفسه القواعد والقوانين التي فرض الله تعالى الالتزام بها في الحرب:

- ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله﴾. (البقرة 194)

القاعدة الأولى: ولا تعتدوا

- ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين﴾. (البقرة 190)

- ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ (البقرة 193)

القاعدة الثانية: الالتزام بالقيم الخلقية:

فلننظر هنا إلى النص الكامل لوصية النبي ﷺ والخلفاء الراشدين لجيوش المسلمين عند انطلاقها للحرب:

"يؤخذ النص العربي

تبقى كلمتان في موضوع الجهاد:

الأولى: الجهاد الذي جاء الأمر به منذ البداية، وظل مأموراً به على الدوام، هو جهاد النفس عن الهوى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا﴾. (العنكبوت 69)، ويقول الرسول ﷺ: "إنما المجاهد الذي يجاهد نفسه لمرضاة الله"⁹.

الثانية: ومن الجهاد نوعٌ تلزم به الجماعة المسلمة وهو الجهاد - بل والقتال - لإنقاذ المظلومين، أيًا كان جنسهم، أو أعمارهم، أو جنسياتهم، أو دينهم: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾. (النساء 75).

* * *

وقد اشتق من نفس مصدر الجهاد مصطلح آخر يدل على الرأي المستقل، وهو ما يعرف بالاجتهاد والذي يدل على المحاكمة العقلية والمنطقية المبنية على الدليل لاستنباط الأحكام. وقد اشتقت كلمة الاجتهاد من الفعل "اجتهد" الذي استخدمه الصحابي الجليل معاذ بن جبل عندما عينه النبي ﷺ والياً على اليمن. فقد سأله النبي كيف يحكم فقال معاذ: "بكتاب الله". فقال له النبي ﷺ: "فإن لم تجد؟" قال: "فبسنة رسول الله". فسأله النبي: "فإن لم تجد؟" قال: "أجتهد رأيي ولا ألو". فقال رسول الله ﷺ مقرأً ما ذكره معاذ: "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي الله ورسوله"¹⁰.

والواقع أن هذا إنما يمثّل طابع الإسلام الذي يُعطي دائماً للعقل والمنطق وزنهما. وهو ما التزم به المسلمون وطبقوه تطبيقاً عملياً كان له أثر بيّن في قيام صرح الحضارة الإسلامية في مدة لم تتجاوز عقوداً قليلة من السنين.

وتطبيق هذا المبدأ شرط أساسي للتنمية، التي هي ضرورية لكل مجتمع، كما أنه نتيجة طبيعية لها. بل إن الحديث النبوي يشير إلى حتمية النمو والتغيير، إذ يقول رسول الله ﷺ: "يبعث الله على رأس كل مئة سنة رجلاً يجدد لأمتي دينها"¹⁰. ويدل هذا الحديث النبوي على ضرورة مراجعة المسلمين باستمرار لتفسير القرآن والسنة عندما يقصر هذا التفسير عن مجارة روح العصر، وتلبية احتياجات الناس المستجدة، أو لا يراعي النظم المستحدثة. ولا بد من ملاحظة أن جوهر العقيدة وأساس الإسلام يظلان دائماً دون تغيير وإنما يكون التجديد في ما يتعلق بالمستجدات البشرية والتاريخية، وبالجوانب التي هي في طبيعتها عرضة للتطور والتغيير. ولذلك نجد أن القواعد الأساسية الصلبة للإسلام تحددها مجموعة من الأوامر والنواهي تمثل الإطار العام للدين، وهذه أمور لا تقبل التغيير. أما ما عداها فيقوم على الاجتهاد على ضوء المبدأ العام الذي ينص على أن الجَلَّ والإباحة هي القاعدة العامة وليست الاستثناء. وقد شجع الرسول ﷺ الاجتهاد وأمر به فقال: "من اجتهد وأخطأ فله أجر، ومن اجتهد وأصاب فله أجران".

* * *

أما الأسلوب الرئيسي الثالث من الأساليب الإسلامية فهو الإحسان. ولعل كلمة الإحسان من أفضل الكلمات تعبيراً في لغة القرآن فهي تعني الصلاح والإتقان والرحمة والعطف والازدهار والجمال. فالحمد لله سبحانه وتعالى يثني على عباده ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾. (الزمر

18) والإحسان والإتقان مطلوبان في كل شيء. يقول رسول الله ﷺ: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"¹¹. ولفظ الإحسان يشمل ظلالاً من العطف والرعاية الحانية التي نفتقدها الآن في مجتمعاتنا المعاصرة، إذ يعبر عن الاستعداد للبذل والعطاء، بل والاستعداد لإيثار المرء أخاه أو أخته على نفسه. والإحسان يعني كذلك يقظة الضمير ومراقبة المرء الله تعالى في كل عمله. يقول رسول الله ﷺ: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه"¹². وكل هذه الدلالات والمعاني تتوَّج بلمسة جمالية تنعكس على كل شيء وكل عمل فهي منبثقة من جمال الله تعالى، إذ يقول النبي ﷺ: "إن الله جميل يحب الجمال"¹³.

﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ (المعارج 5).

﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ (الحجر 85).

﴿وسرّحوهن سراحاً جميلاً﴾ (الأحزاب 49).

﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾ (المزمل 10).

يقيم الإسلام العلاقات بين البشر على أساس الأخوة المطلقة، سواء كانت هذه العلاقات بين الرجال والنساء أو بين المسلمين وغير المسلمين، لقد كان رسول الله ﷺ يقول في أذكاره اليومية: "وأشهد أن الناس، كل الناس، إخوة".

يخرج المجتمع إلى الوجود عندما يصبح كل فرد في هذا المجتمع لبنة فيه. ولا يعني هذا أن يذوب الأفراد في المجتمع فتتعدم شخصياتهم، ولكنه يعني أن كل أفراد المجتمع يحسون إحساساً قوياً بالرابطة التي تؤلف بينهم وتوحدهم. يعبر الحديث النبوي عن ذلك أجمل تعبير: "المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً"¹⁴. وقد شبك رسول الله ﷺ بين إصبعيه مؤكِّداً هذا المعنى. كذلك يعطينا النبي ﷺ صورة جميلة أخرى تؤصّل مفهوم التضامن. فيقول: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد: إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"¹⁵. فلنتأمل هذه اللمسات الجميلة في التعبير النبوي مؤكِّدة عناصر التضامن التي تُعطي كلها صورة التفاعل المتبادل. وهذا يعطينا الإحساس بأن المحبة والعطف والرحمة مشاعر يحس بها الجميع، ويتلقاها الجميع في إطار يتداوله الجميع.

يقول الرسول ﷺ: "خير الناس أنفعهم للناس"¹⁶. وهذا نص يشبه ما جاء في الحديث الآخر: "أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس"¹⁷. ويقول ﷺ: "من استطاع منكم أن ينفع أخاه بشيء فليفع"¹⁸. وهذا يعني أن على المسلم أن يعين أخاه المسلم وأن لا يألو جهداً في تحقيق مصالحه. فالإسلام لا يسمح لمسلم إطلاقاً بأن يكون سلبياً أو متوانياً في أداء مسؤولياته الاجتماعية. ويكفي أن نورد هنا قول النبي ﷺ: "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"¹⁹.

ويقول رسول الله ﷺ: "المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يُسلمه"²⁰. وفي رواية أخرى: "ولا يخذله"²¹. ولا يجوز لأي مسلم أن يقف موقفاً سلبياً إذا رأى إنساناً في المجتمع الإسلامي

يتعرّض لظلم، بل لابد له أن يعينه، فإنه إن لم يفعل يكون قد خذله وأسلمه. بل إنه بذلك يحرّمه من حق له على كل إخوانه في المجتمع الإسلامي، رجالاً ونساءً.

* * *

إن المجتمع الإسلامي يجب أن يكون دائماً في حالة مستمرة من التقدّم والتنمية كي يجسّد عملياً الوصف الذي جاء في الإنجيل وذكره القرآن. وهذا النص يصف المجتمع الإسلامي بأنه "كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه. يعجب الزراع". (الفتح 29). وهذا يعني أن كل فرد في المجتمع المسلم إنما يماثل نبتة أو غصناً في شجرة، فهو ليس عبئاً على المجتمع، بل يؤدي واجبه ليكون عوناً وقوة لهذا المجتمع. وعندما يكون التعاون من كل الأفراد، فإن المجتمع يتآزر، ويستغلظ، ويستوي على سوقه، ليعجب الناس جميعاً.

والمبدأ الأساس لكل ذلك هو أن المجتمع الإسلامي يفرض على كل فرد من أفراده واجباً في مؤازرة المجتمع إلى أن يصل إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي. فالمسلم، كما يقول النبي ﷺ، "يعمل بيده فينفع نفسه وينفع الناس"²².

يفرض الإسلام على كل فرد من أبنائه أن يعمل لكسب معاشه، فيقول الله تعالى: "وابتغوا من فضل الله". (الجمعة 10)، وهو يشجع الفرد على القيام بأي عمل يدر عليه دخلاً ويسد حاجاته. يقول النبي ﷺ: "من استغنى أغناه الله، ومن استعفت أعفه الله"²³. ويقول: "لأن يأخذ أحدكم أحبله، ثم يأتي بخرمة حطب على ظهره فيبيعهها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه"²⁴. ويعلمنا رسول الله ﷺ أنه "ما أكل أحد طعاماً أفضل من أن يأكل من عمل يده. وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده"²⁵. فالإسلام إذن يبني مجتمعاً يمكن أن نسميه بحق "مجتمع اليد العليا"، وهي اليد المنتجة المعطاءة، إذ يقول النبي ﷺ: "اليد العليا خير من اليد السفلى"²⁶.

ولا يبيح الإسلام التبذير وتبديد الموارد، فالرسول ﷺ يقول: "إتلاف المال حرام"²⁷. والله سبحانه وتعالى ينهانا عن التبذير فيقول: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط". (الإسراء 29) ويصف الله تعالى عباده بأنهم "إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا". (الفرقان 67). ويأمرنا ربنا جل وعلا: "ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين" (الأنعام 141). بل إن رسول الله ﷺ يأمرنا بالاقتصاد حتى في استخدام الماء للوضوء، فالاعتدال هو التصرف الأمثل في كل الأمور.

* * *

ثم نأتي إلى أسلوب آخر يعتبر من أهم عناصر الإحسان، وهو ما يسمى الصدقة. والصدقة اسم جميل يستخدمه الإسلام تعبيراً عن ما نسميه اليوم بالتصرف الحضاري، والظلال التي يلقيها اسم الصدقة تعطي دلالة حقيقية على انتماء الفرد إلى مجتمع إسلامي حضاري.

ويفرض الإسلام على كل مسلم، ذكراً كان أو أنثى، أن يثبت مرة على الأقل في اليوم انتماءه إلى المجتمع المسلم بالقيام بعمل حضاري واحد على الأقل. فالنبي ﷺ يقول في توجيه عام صادر لكل المسلمين: "على كل نفس في كل يوم طلعت فيه الشمس، صدقة منه على نفسه"⁽²⁸⁾. وقد ظن أحد أصحاب النبي ﷺ أنه إنما قصد الصدقة بالمال، فسأله: "من أين أتصدق وليس لنا أموال؟" وجاء رد النبي ﷺ يبين الجوانب العديدة للصدقة في المنظور الإسلامي فقال: "تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، وتعزل الشوكة عن طريق الناس والعظم والحجر، وتهدي الأعمى، وتسمع الأصم، والأبكم حتى يفقه، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقك إلى اللفهان المستغيث، وترفع بشدة ذراعك مع الضعيف. كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك".

وفي رواية أخرى يقول النبي ﷺ: "تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال صدقة، وبصرك الرجل الرديء البصر صدقة، وإمطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة"⁽³⁰⁾.

غير أن النبي ﷺ لم يترك الجانب المالي من الصدقة دون جواب، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: "على كل مسلم صدقة". قالوا: "فإن لم يكن له مال؟". قال ﷺ: "يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق"⁽³¹⁾.

وجاء في رواية رابعة أن النبي ﷺ قال: "كل كلمة طيبة صدقة، وعون الرجل أخاه صدقة، والشربة من الماء تسقيها صدقة، وإمطة الأذى عن الطريق صدقة"⁽³²⁾.

وجاء في رواية رابعة أن النبي ﷺ قال: "الكلمة الطيبة صدقة، وعون الرجل أخاه صدقة، والشربة من الماء تسقيها لإنسان صدقة، وإمطة الأذى عن الطريق صدقة"⁽³³⁾.

* * *

والمعروف هو الأسلوب الخامس من الأساليب الرئيسية الأساسية في حياة المسلم. أما ما نقصده بالمعروف فقد حدده النبي ﷺ بقوله: "تفعل المعروف وتنهي عن المنكر. انظر ما تحب أن يقول الناس عنك إذا غبت فافعله، وانظر ما تكره أن يقول الناس عنك في غيابك فامتنع عنه"⁽³⁴⁾.

وعلى هذا فالمعروف إنما هو تعبير عن الضمير الجماعي في المجتمع المسلم الخير، وبالمقابل فإن المنكر يعني كل أمر يرفضه هذا الضمير الجماعي. ولذلك فإنه ليس من المستغرب أن يكون التواصي بالمعروف واجباً، لأنه يقوي الأواصر ويمتد العلاقات داخل المجتمع الإسلامي وهذا بالضبط هو ما يقصد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن أجل حماية المجتمع لا بد للأفراد من أن يعتني كل منهم بنفسه: "عليكم أنفسكم" بالأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر. فإنهم إذا فعلوا ذلك لا يضرهم ضلال من ضلّ. ذلك لأن هؤلاء الذين يمثلون الغالبية التي تنصاع لأوامر الله سبحانه هم المهتدون: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ (المائدة 105).

وفي عالمنا اليوم يمكن أن نقول إن اجتياز إشارة المرور وهي حمراء يندرج في ما هو حرام شرعاً، لأن النبي ﷺ يقول: "على العبد المسلم السمع والطاعة في ما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية"³⁵. فتنظيم المرور وتحديد الأولوية في الطريق لا يشكلان معصية لله، بل يخدمان مصالح الناس ويعودان عليهم بالنفع. ولذلك فإن الالتزام بأنظمة المرور يعتبر واجباً شرعياً بمقتضى كلام النبي ﷺ. وهذا يعني أن مخالفة أنظمة المرور حرام، وأن لفت نظر شخص ما إلى ضرورة الالتزام بها أمر مشروع، أو بالمصطلح الإسلامي، من المعروف.

وتلويث البيئة بأي شكل أو صورة أمر ضار وغير مشروع، ولذلك فإن الحديث عن التلوث ومنعه يعتبر من النهي عن المنكر، بينما يعتبر الحديث عن ضرورة الحفاظ على البيئة من الأمر بالمعروف. كذلك فإن التدخين الذي يعرض المدخن ومن حوله إلى أخطار صحية كبيرة حرام، ولذلك فإن محاولة إقناع المدخن بالإقلاع عن التدخين يعتبر من النهي عن المنكر. وكذلك فإن نصح غير المدخنين، وخصوصاً الشباب، لإعانتهم على مقاومة إغراء التدخين هو كذلك من الأمر بالمعروف. وإرضاع الوليد من الثدي مفيد جداً، وتشجيع الرضاعة بين النساء اللاتي هن في سن الإنجاب من الأمر بالمعروف. وتطعيم الأطفال لإعطائهم المناعة ضد أمراض الطفولة السارية أمر كبير النفع لأنه يحمي الأطفال من عدد من الأمراض الخطيرة، لذلك فالعمل على تعميم التطعيم ليشمل كل الأطفال يعتبر من الأمر بالمعروف.

وينكر الله سبحانه وتعالى على أمة من الأمم أنهم ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾. (المائدة 79) وبالمقابل يثني الله سبحانه وتعالى على القوم الذين يقفون من المنكر موقفاً صلباً فيقول: "أنجينا الذين ينهاون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون". (الأعراف 165).

وهذا المفهوم مصوراً أجمل تصوير في الحديث المشهور الذي يتحدث عن قوم في سفينة وموقفهم من قلة منهم يريدون إحداث ثقب في جانبهم من السفينة. "فإنهم إن تركوهم غرقوا وغرقوا جميعاً، وإن هم أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"³⁶. كما يصور هذا المفهوم في الحديث النبوي الذي يقول: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً". فقال الرجل: "يا رسول الله، أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: "تردعه عن ظلمه، فذلك نصرته"³⁷.

والحقيقة أن علاقة الإخوة والتعاون هذه كانت ولا تزال الأسلوب الرئيسي لتمكين الناس، رجالاً ونساءً، على قدم سواء. يقول الله سبحانه: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" (التوبة 71).

وهذا الواجب الاجتماعي المفروض على الرجال والنساء يؤدي بطرق شتى مثل المشاركة الفعالة في المجالس الاستشارية، والحديث في أجهزة الإعلام، كما يمكن أدائه بشكل منظم مثلما فعل عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين، إذ أسس نظام الحسبة للإشراف على معاملات الناس، وضمان الجودة، وسن أنظمة وتشريعات تفيد المجتمع.

وكانت الشفاء بنت عبد الله الصحابية التي تولت تعليم المسلمات الأميات القراءة والكتابة أول من أسند إليها منصب المحتسب في الإسلام، إذ عينها عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين.

ويحدث يحيى بن أبي سليم عن أيام عمر بن الخطاب فيقول: "رأيت السمراء بنت نهيك، صاحبة رسول الله ﷺ، تلبس ثوباً صفيقاً وتحمل في يدها سوطاً تضرب به الناس، تأمر بالمعروف وتنتهي عن المنكر".

* * *

في الختام أود أن أقول إن التعليم لا يكفي وحده لتربية الناس، ولا يجعل المتعلم إنساناً أفضل، أو أكثر حرية أو إنسانية، ولكنه يجعله أكثر قدرة وكفاءة، وأكثر فائدة للمجتمع. ويؤكد لنا التاريخ أن من الممكن استغلال الأفراد المتعلمين والشعوب التي هي على درجة عالية من التعليم، بل إن هؤلاء يمكن تسخيرهم للشر تسخييراً أكثر فاعلية مما لو كانوا متخلفين. وتاريخ الاستعمار إنما هو سلسلة من الوقائع التي شنت فيها أقوام متحضرة حروباً ظالمة استهدفت إخضاع أو استئصال شعوب أقل تعليماً وأكثر تخلفاً، لكنها كانت تدافع عن حريتها واستقلالها. ولم يكن لارتفاع مستوى التعليم لدى الغزاة أي أثر في أهدافهم أو طرائقهم، بل كان تعليمهم إنما يزيد من كفاءتهم وقدرتهم على إلحاق الهزيمة بخصومهم.

والتعليم المدرسي في العالم المتحضر مفرط في التركيز على الجانب الفكري، فقير في الجانب الإنساني. أو بالمصطلحات الدارجة مفرط تقنياً فقير في القيم الإنسانية المتعارف عليها. فليس من الصعب اليوم أن نتخيل شاباً يمر بكل مراحل التعليم، من المدرسة الابتدائية إلى الجامعة، دون أن يقال له إن من واجبه أن يكون إنساناً صالحاً وأميناً. فهو يبدأ بتعلم القراءة والحساب، ثم يتعلم الفيزياء والكيمياء، وعلم أجناس البشر والجغرافيا، والنظريات السياسية والاجتماعية، كما يتعلم مواد كثيرة أخرى. وعندما ينهي تعليمه يكون قد جمع كمية كبيرة من الحقائق، ويكون في أفضل الأحوال قد تعلم كيف يفكر لكنه لم يصبح متتوراً. واليوم نجد أن مكانة التاريخ والآداب والفنون والأخلاق والقانون تتضاءل شيئاً فشيئاً في مدارسنا ومعاهدنا.

وليس للتدريب أي أثر في نظرة الإنسان الخلقية. إذ يمكن تدريب الجندي أن يكون صلب المراس، واسع الحيلة، قوي البنية، لكن لا يمكن تدريبه ليكون أميناً، كريم النفس، متحمساً وشجاعاً، فهذه صفات معنوية أو روحية. إن من المستحيل فرض عقيدة على الناس بإصدار مرسوم، أو باللجوء إلى أساليب الإرهاب والضغط والعنف والسلاح. إن أي معلم في مدارس الأطفال يمكن أن يعطينا أمثلة عديدة تبين كيف يقاوم الأطفال التوجيه المستمر في وجهة معينة،

وكيف يستطيعون بالتالي تنمية اهتمامهم بالسلوك المناقض تماماً. وهذا يرجع إلى "الصفة الإنسانية" في الإنسان. إن الإنسان لا يمكن تدريبه بالشكل الذي ندرّب به الحيوان. وإذا كان التدريب قليل الكفاءة، والتعليم غير مؤكّد النتائج، فإن ذلك برهان على أن الإنسان حيوان وهبه الله روحاً، بمعنى أنه أعطاه الحرية. ولهذا فإن التربية الصحيحة هي التي تكون في جوهرها تربية ذاتية لا تعتمد على التدريب والتعويد. وهدف التربية الصحيحة لا يمكن أن يكون تغيير الإنسان تغييراً مباشراً (لأن ذلك غير ممكن أصلاً) وإنما يجب أن يكون الهدف هو تحفيز تيار داخلي من التجارب والخبرات لا تتّخذ قرار في أعماق النفس بالتزام الخير، وذلك باستخدام أساليب شتى كضرب الأمثال، والإرشاد، والتبصير وغير ذلك. أما فيما سوى هذا فلا يمكن تغيير الإنسان. صحيح أن من الممكن تغيير سلوكه ولكن ذلك قد يكون تغييراً ظاهرياً أو مؤقتاً. إن السلوك الذي لا يستند إلى أعماق الإرادة لا يكون نابعاً من التربية، وإنما أساسه التدريب. أما التربية فهي التي تعتمد على مشاركة المتلقّي وجهوده، وهذا هو ما يجعل نتائج التربية مختلفة تماماً عن نتائج التعليم، ولا يمكن التكهّن بها مسبقاً.

التربية أمر لا يخضع للقياس، بل هي تأثير يتسلّل بلطف إلى نفسية الإنسان، وهي تتم دائماً بأسلوب غير مباشر، عن طريق الحب، وتوفير القدوة، والصفح، والعقوبة شريطة أن يكون القصد من وراء ذلك كله تحريك دوافع داخلية في نفس الإنسان. أما التدريب فهو حيواني في أساسه، ولا يخرج عن كونه مجموعة من الأعمال والخطوات التي تريد أن تفرض على الإنسان سلوكاً معيناً، نسميه عادة السلوك الصحيح. ولذلك فإن التربية تختص بالإنسان، بينما التدريب يخص الحيوان. ويمكن عن طريق التدريب أن نجعل المواطنين يطيعون القانون خشية العقوبة، أو بالتعود، ولكن دون أن يكون لديهم أي احترام للقانون. بل ربما يكونون قد ماتوا في داخل أنفسهم، وقد تكون مشاعرهم قد بليت، وتبدلت، ولكنهم يظلون ملتزمين بالقانون لا يخرقونه، لأنهم قد تدربوا على ذلك وتعودوه.

* * *